بمناسبة
عيد الصعود

سر صعود الرب

للقديس أوغسطينوس[1]

بعد القيامة أظهر الرب نفسه لتلاميذه ليروه بعيونهم ويلمسوه بأيديهم، وليؤكد لهم أنه لم يكن خيالًا أو روحًا: «جُسُّونِي وَانْظُرُوا، فَإِنَّ الرُّوحَ لَيْسَ لَهُ لَحْمٌ وَعِظَامٌ كَمَا تَرَوْنَ لِي» (لو ٢٤: ٣٩). ثم مكث معهم أربعين يومًا وهو يدخل إليهم ويخرج (أع ١: ٢١) ويكلمهم عن الأمور المختصة بملكوت الله (أع ١: ٣). وأكل وشرب معهم ليس من واقع احتياجه، بل بسلطانه لكي يشاركهم في حياته، فأظهر بذلك أنه قام بجسده هو هو وإن كان قد أخذ طبيعة القيامة.

لماذا أربعون يومًا؟

لماذا لم يمكث مع تلاميذه أقل أو أكثر من أربعين يومًا؟ لم يكن هذا بدون سبب. فلعل الأربعين يومًا تمثِّل ملء الحكمة، وهذا ما دعاه أن يصوم أيضًا أربعين يومًا، ولعل هذا هو أيضًا سبب صوم إيليا – الذي كان يمثل في شخصه قوة النبوَّة في العهد القديم – أربعين يومًا (١مل ١٩: ٨)، كما أن موسى النبي الذي كان يمثِّل الناموس صام أربعين يومًا (خر ٢٤: ١٨)، وهكذا قاد بني إسرائيل مدة أربعين سنة في البرية (عد ٣٢: ١٣). ولمدة أربعين يومًا مكث فُلك نوح بدون ضرر تحت مطر الطوفان (تك ٧: ١٢). الفُلك الذي يرمز إلى الكنيسة والذي صُنع من خشبٍ لا يسوِّس يُشير إلى نفوس القديسين الأبرار، والذي احتوى في داخله على الحيوانات الطاهرة وغير الطاهرة، لأنه طالما نعيش نحن في هذا العالم فإن الكنيسة لا بد أن تحوي في داخلها الصالحين والأردياء ثم تتطهَّر بالمعمودية كما بطوفان. ولكن كما حمل الله نوحًا وذويه فوق مياه الطوفان لمدَّة أربعين يومًا، هكذا تحملنا الكنيسة في هذا العالم لزمان قليل (وكأنه أربعين يومًا).

---

(1) PL 38, Sermon 262,264. De Ascensione Domini II, IV.

المسيح الذي صعد يحوي الرأس والأعضاء:

المسيح واحدٌ مع الآب، وهو أيضًا واحدٌ معنا! ولكن إن كان يذهب إلى الآب وحده فما هو ربحنا من ذلك؟ ولأي هدف يُقنع الروح القدس العالم بهذا البرِّ؟ ومع ذلك فإن كان هو لا يذهب وحده إلى الآب لمَّا قال: «لَيْسَ أَحَدٌ صَعِدَ إِلَى السَّمَاءِ إِلاَّ الَّذِي نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ» (يو ٣: ١٣). ولكن الرسول بولس يقول أيضًا: «إِنَّ سِيرَتَنَا نَحْنُ هِيَ فِي السَّمَوَاتِ» (في ٣: ٢٠). ولمَ هذا؟ لأنه يقول أيضًا: «فَإِن كُنْتُمْ قَدْ قُمْتُمْ مَعَ الْمَسِيحِ فَاطْلُبُوا مَا فَوْقُ، حَيْثُ الْمَسِيحُ جَالِسٌ عَنْ يَمِينِ اللهِ. اهْتَمُّوا بِمَا فَوْقُ لاَ بِمَا عَلَى الأَرْضِ، لأَنَّكُمْ قَدْ مُتُّمْ وَحَيَاتُكُمْ مُسْتَتِرَةٌ مَعَ الْمَسِيحِ فِي اللهِ» (كو ٣: ١ – ٣). فكيف، إذن، يكون هو وحده؟ هل هذا يعني أنه هو واحدٌ مع جميع أعضائه كما أن الرأس واحدة مع الجسد؟ وما هو جسده إن لم يكن هو الكنيسة؟ كما يقول الرسول: «أَمَّا أَنْتُمْ فَجَسَدُ الْمَسِيحِ، وَأَعْضَاؤُهُ أَفْرَادًا» (١كو ١٢: ٢٧). وحيث إننا سقطنا وهو نزل من السماء من أجلنا، فما الذي تعنيه تلك الكلمات: «لَيْسَ أَحَدٌ صَعِدَ إِلَى السَّمَاءِ إِلَّا الَّذِي نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ»، إذا لم يكن أنه لا يصعد إلى السماء أحدٌ لم يُصبح واحدًا معه، وكعضو يصبح مستترًا في جسد ذاك الذي نزل من السماء؟

لقد ذهب الرب، وهو رأسنا، بالجسد قبلنا إلى السماء، وسوف تتبعه بقية الأعضاء، لماذا؟ لكي تستريح تلك الأعضاء في سلام بعد الموت لبعض الوقت، ثم في الوقت المعيَّن تقوم كلها مرةً أخرى. لقد فضَّل المسيح أن يقدِّم لله أبيه في نفسه "باكورة الراقدين" حتى عندما ترى أنت ما تجدَّد فيه بالقيامة ستمتلئ بالرجاء فيما سيحدث لك أنت أيضًا.

الرب يفطمنا من علاقتنا المنظورة به:

لماذا صعد الرب؟ لأنه لم يشأ أن يبقى أمام عيون تلاميذه وأتباعه في الجسد حتى لا يتعلَّقوا به جسديًّا وعاطفيًّا. لقد اعتادوا أن يروه بينهم كسيدهم ومعزيهم ومشيرهم وحافظًا لهم وهو إنسان مثلهم، ورغم أنه غاب عنهم ثلاثة أيام في القبر، إلاّ أنه كان يحرسهم كما تحرس الدجاجة صغارها الضعيفة. أمَّا الآن، فينبغي أن يَسْمُوا بأذهانهم ويبدأوا في التفكير فيه روحيًّا.

لقد أراهم نفسه لكي يثبتوا في إيمانهم ثم كان ينسحب من أمام عيونهم لكي يتعلَّموا أن يفكروا فيه كإله، وأنه بعد أن كلَّمهم كأخ على الأرض ينبغي الآن أن يعضدهم كرب من السماء، ولذلك سبق وقال لهم: «لَوْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَنِي لَكُنْتُمْ تَفْرَحُونَ لأَنِّي قُلْتُ أَمْضِي إِلَى الآبِ، لأَنَّ أَبِي أَعْظَمُ مِنِّي» (يو ١٤: ٢٨)، كما قال أيضًا: «أَنَا وَالآبُ وَاحِدٌ» (يو ١٠: ٣٠)، هذه الوحدانية التي علَّمها لفيلبس قائلًا: «أَنَا مَعَكُمْ زَمَانًا هذِهِ مُدَّتُهُ وَلَمْ تَعْرِفْنِي يَا فِيلُبُّسُ! اَلَّذِي رَآنِي فَقَدْ رَأَى الآبَ، فَكَيْفَ تَقُولُ أَنْتَ أَرِنَا الآبَ؟» (يو ١٤: ٩). إنه يقصد هنا الذي يراه بعين النفس لا الجسد.

ولماذا قال: «أَبِي أَعْظَمُ مِنِّي»؟ لأنه إذا انسحب من أمام عيونهم كإنسان فحينئذٍ ستتركز أفكارهم في الله، ولذلك أراد أن يقطع العلاقة المألوفة بينهم وبينه حتى إنهم في غيابه بالجسد عنهم يفكرون في لاهوته وفي شخصه (أي أقنومه) كمساوٍ للآب، لذلك قال لهم: «لَوْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَنِي لَكُنْتُمْ تَفْرَحُونَ لأَنِّي قُلْتُ أَمْضِي إِلَى الآبِ». إذًا، فلتصعد هيأتي هذه من أمامكم إلى السماء لكي تتعلَّموا ما هو الذي ينبغي أن تترجوه.

لأنه لو كان الرب قد خلع جسد القيامة – ولم يصعد به إلى السماء – لكان البشر قد يئسوا من قيامة أجسادهم. والآن قد حزن التلاميذ يسيرًا بسبب انفصاله عنهم بالجسد، ولكن بعد عشرة أيام مليئة بالصلوات حلَّ عليهم الروح القدس الذي ملأهم بالمحبة الروحية ونزع من قلوبهم التعلُّق الأرضي والعاطفي بالرب. ومنذ ذلك الحين ابتدأوا يؤمنون بمساواة الابن كلمة الله بالآب، ولم يكن ممكنًا أن يمتلئوا بهذا المفهوم إلَّا لأن موضوع حبِّهم العاطفي الأرضي اختفى من أمام عيونهم. وهنا ابتدأوا يفهمون أن الآب والابن واحد بالطبيعة، وفي نفس الوقت "الآب أعظم مني" بسبب الرحمة وعظم التحنن التي جعلت الابن يتضع ويصير إنسانًا. إنه لم يتغير عندما أخذ جسدًا تمامًا كما أن من يلبس رداءً لا يتغير بل تظل شخصيته كما هي داخل الرداء. وكأن الرب يقول لنا: إنني أترككم شكليًّا فقط، أمَّا داخليًّا فأنا سوف أملأكم من ذاتي، سوف أملك على نفوسكم بقوة لاهوتي لكي تتغيَّروا داخليًّا وتأخذوا حياتي فيكم!!

انظر بقية المقال (صفحة ٢٣)